بسم الله الرحمن الرحيم

الحركات المسلحة في الساحل والصحراء: رؤية للواقع واستشراف للتحييد

إعداد: أحمد محمد المصطفى – باحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الكريم وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

يقف العالم اليوم – بعد أكثر من عقد من الزمن على إعلان الإستراتيجية الدولة لمكافحة الإرهاب – وهو يشاهد الآثار العكسية لهذه الإستراتيجة، من حيث انتشار الظاهرة الموسومة بالإرهاب، وتوسع الرقعة الأرضية التي تسيطر عليها، وتضاعف إمكاناتهم العسكرية، والبشرية، والمادية، وهو ما يجعل من الوارد إعادة اللازم إعادة النظر في هذه الإستراتيجية، والبحث عن بدائل أكثر نجاعة وأقل دموية، ودراسة سبل تحييد العنف وحركاته، ووضع للصراعات الدامية المشتعلة في أكثر من بقعة في العالم.

وتتناول هذه الورقة موضوع "سبل تحييد حركات العنف من خلال الحوار"، من خلال محاور أولها تحت عنوان: لماذا هذا الموضوع، وثانيها تحت عنوان: حصاد ١٣ سنة من إستراتيجة الإرهاب في منطقة الساحل والصحراء، أما الثالث فيعرج على موضوع الورشة، مقدما مقترحات حول سبل تحييد العنف من خلال الحوار، والممهدات الضرورية له، وسله، وضماناته.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن إستراتيجية الإرهاب بمفهومها واستخداماتها اليوم تتداخل مع قصة طريفة كانت تحصل كثيرا في المناطق النائية من البلاد، وهي أن المسنات كن عندما يحصلنا على دواء أي دواء يحتفظن به لتقديمه لأول مريض في الأسرة، دون مراعاة لتشخيص الدواء أو لتجربته، أو لملائمته للداء المعالج، وهكذا بدت الوصفة الأمريكية للإرهاب فكل دول العالم استخدمتها بشكل أو بآخر دون مراعاة خصوصية كل بلاد، أو انتظار الفترة الضرورية لتجربة الدواء.

أولا: لماذا هذا الموضوع؟

يأتي هذا الموضوع في مرحلة يشهد العالم فيها انتشارا غير مسبوق للحركات المسومة بالإرهاب عالميا، واتساع الرقعة الأرضية التي تسيطر عليها في الشرق الأوسط وفي إفريقيا، إضافة لتزايد إمكانياتها العسكرية والمادية، وتجنيدها المستمر لمئات الشباب القادم من كل القارات، وهو ما يفرض نقاش موضوع الحوار ودوره في تحييد العنف كأداة في الصراع الدائر بين هذه الحركات والأنظمة الغربية وحكام دول المنطقة العربية والإفريقية.

إن نظرة سريعة على الأوضاع اليوم تكشف بجلاء فشل الإستراتيجية الدولية لمكافحة الإرهاب، ومفعولها العسكي من خلال مضاعفة عدد الحركات المسلحة، وزيادة قوتها، ومنحها مبررات جديدة لاستقطاب أنصار ومجندين، وتحويلهم إلى أدوات قتل وتدمير، وقنابل موقوتة قد تنفجر في أي لحظة.

تذكرني الإستراتيجية الأمريكية بما كانت تفعله المسنات الموريتانيات قديما مع الأدوية القليلة التي كانت تصل المضارب في عمق الصحراء، لقد كانت مسنات الحي يحتفظن بالقليل الذي يصل منها لتقديمه لمرضى الحي، دون تشخيص، ودون معرفة بمدى صلاحية الأدوية، أو مناسبتها للمرض.

لقد استنسخت دول العالم الإستراتيجية الأمريكية قبل تجريبها، وطبقتها بحذافيرها، وعالجت بها كل أمراضها، رغم عدم مواصفة هذه الإستراتيجية للمواصفات العقلانية في علاج المشكلات الأمنية ذات الخلفية الفكرية.

إن الضريبة الكبيرة للأعمال الإرهابية في العالم ككل، تنبئ عن أهمية هذا الموضوع، وتفرض وضعه على طاولة البحث والتحليل والنقاش العلمي، للخروج بخلاصات تساهم في التخفيف من انتشار العنف، وتحد من خطره.

ثانيا: حصاد ١٣ من إستراتيجية الإرهاب في الساحل

لقد بدأت الحرب على الإرهاب في العام ٢٠٠١، والحركات المسلحة في الساحل لا تتعدى واحدة هي الجماعة السلفية للدعوة والقنال، وكانت أغلبية نشاطها محصورة في المناطق الجزائرية، باستثناء كتيبة واحدة، لا يصل عدد أفرادها الخمسين فردا وكانت تنشط في منطقة الشمال المالي.

أما اليوم فقد قارب عدد الحركات المسلحة في المنطقة الإفريقية أصابع اليدين (٩ حركات)، وتزايد خطرها بفعل التصاعد الخطير في قوتها، وفي إمكاناتها العسكرية والمادية، وفي حجم انتشارها من شرق القارة الإفريقية إلى غربها.

لقد تطورت الكتيبة الوحيدة التي كانت موجودة إبان الحادي عشر من سبتمبر إلى أربع كتائب منضوية في فرع نشط وقوي لتنظيم القاعدة، يعرف بتنظيم القاعدة ببلاد المغرب، كما انتشرت الحركات والتنظيمات الإسلامية المسلحة خلال هذا العقد من شرق إفريقيا إلى غربها، ومن أبزر هذه الحركات:

١- **تنظيم القاعدة ببلاد المغرب الإسلامي:** وقد التحق فكريا بتنظيم القاعدة في العام ٢٠٠٤، قبل أن تعلن بشكل رسمي في العام ٢٠٠٧، وقد تزايدت قوته وتعدد كتائبه لتتوج ذلك بسيطرته على الشمال المالي، قبل التدخل الفرنسي.

٢- **جماعة المرابطون:** ونشأت هذه الحركة نهاية العام ٢٠١٣ نتيجة اندماج كتيبة "الملثمون" المنسحبة من تنظيم القاعدة ببلاد المغرب الإسلام، والتي يقودها مختار بلمختار، وحركة التوحيد والجهاد في غرب إفريقيا.

٣- **حركة أنصار الدين:** وهي تشكلت نهاية العام ٢٠١١ وبداية العام ٢٠١٢، وتتشكل في غالبيتها من قومية الطوارق الموجودة في شمال مالي، ويقودها القيادي التاريخي في المنطقة إياد أغ غالي، وقد تحالفت بشكل وثيق مع تنظيم القاعدة.

٤- **جند الخلافة:** وهي في الأصل المنطقة الوسطى لتنظيم القاعدة ببلاد المغرب الإسلامي، وقد انسحبت من هذا التنظيم بعد إعلان خلافة البغدادي، وأعلنت مبايعته، كما اختطفت فرنسيا في الجزائر، وقتلته بأوامر من التنظيم في الأم في العراق وسوريا.

٥- **جماعة أهل السنة للدعوة والجهاد:"بوكو حرام" نشأت في العام** ٢٠٠٢، وتصاعدت عملياتها منذ العام ٢٠٠٩، وكان ذورتها في العام ٢٠١١، أسسها محمد يوسف (قتل يوليو ٢٠٠٩)، ويقودها اليوم أبو بكر شيكاو.

٦- **حركة الشباب المجاهدين الصوماليين**: تأسست في العام ٢٠٠٤ كجناح عسكري للمحاكم الإسلامية، قبل أن تنشق عنها، من أبرز قادتها،عدن هاشي فرح آيرو، المعروفي بأبي حسين الأنصاري، قتل ٢٠٠٨ في غارة أمريكية، ومختار روبو، المعروف بأني منصور، وهو الناطق الرسمي باسم الحركة، إضافة لزعيمها الحالي مختار علي الزبير.

٧- **حركة أبناء الصحراء للعدالة الإسلامية**: وقد نشأت في العام ٢٠٠٤ تحت اسم "حركة أبناء الجنوب من أجل العدالة"، وكانت تناهض الحكومة الجزائرية، وتطالب بإنصاف سكان الجنوب، ونفذت عمليات مسلحة تعرضت إثرها لضربة قوية من النظام الجزائري دفعت قادتها للتخلي عن العمل المسلح أو الهجرة خارج البلاد، لاحقا ظهر أحد مؤسسي الحركة في الشمال المالي، وأعلن قيام الحركة الجديدة، وانضم لها عدد من الشباب الجزائري، وقد شارك قائدها ضمن الكوماندوز الذي استهدف منشأة "عين أمناس" بالجزائر يناير ٢٠١٣.

٨- **حركة أنصار الشريعة في ليبيا:** تأسست في النصف الأول من العام ٢٠١٢، وقبل ذلك كانت لعدد من قادتها تواصل مع قادة تنظيم القاعدة في الشمال المالي، وكان بلمختار نفسه في ضيافة هذا التنظيم خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من العام ٢٠١١، ومن أبرز قادتها محمد الزهاوي وهو قائدها العام، ومحمد الطرشاني وهو رئيس لجنتها الشرعية.

٩- **حركة أنصار الشريعة في تونس**: تأسس هذه الحركة في العام ٢٠١١، وتنشط هذه الجماعة في تونس، وتضم داخلها العديد من القادة السلفيين الذين أطلق سراحهم بعد سقوط نظام بن علي، أبرزهم قائدها العام سيف الله بن حسين المعروف بأبي عياض، وبدأت هذه الحركة في العمل المسلح بشكل علني في شهر يوليو الماضي بعد استهداف كتيبة عقبة بن نافع التابعة لها لنقاط تفتيش للجيش التونسي في جبل الشعانبي.

ومع تزيد هذه التنظيمات تزايدت بالضرورة الرقعة الأرضية التي تسيطر عليها، وتضاعفت إمكاناته المادية والعسكرية، والبشرية، وتعددت نوعية عملياتها، ومن أبرزها خلال الأعوام الأخيرة، عين أميناس في الجزائر، وعمليات الاختطاف التي قامت بها بوكي حرام في نيجريا، وعمليا الشباب في الصومال، وعملية آريفا في النيجير، وعملية شارلي إيبدو قبل أسبوعين.

ثالثا: مقترحات في إطار التحييد

تنقسم قيادة الحركات عادة إلى قسمين، أحدهما شرعي علمي، وآخر عسكري، وتترنح قرارات القيادة عادة بين هذين التيارين، واعتماد الحوار يعني دعم موقف التيار العملي وتعزيزه، أما الخيار العسكري فيعزز جوانب العنف ويرسخها، ويقصي الخيارات العقلانية، وخيارات الحوار والحلول السلمية.

وقد حصلت نماذج كثيرة لقيادة التيار العلمي في هذه الحركات للحوار، بل ولمراجعات أصبحت في بعض مراحلها ذاتية، ومن نماذج ذلك ما حصل في مصر أيام الجماعة الإسلامية المقاتلة، وقيادات الجماعة الإسلامية المقاتلة في ليبيا.

وفي الغالب يكون دور هذا التيار الشرعي توجيه العمليات المسلحة في حال إقرارها، والاعتراض على ما يرفضونه شرعيته، ومن هذه النماذج انسحاب القيادي السابق في القاعدة محفوظ ولد الوالد المعروف بأبي حفص الموريتاني بعيد عملية الحادي عشر من سبتمبر.

فاعتماد أسلوب الحوار يدعم ويسند موقف التيار العلمي والشرعي في مواجهة الموقف العسكري الداعم لعنف المنفلت.

وقد أثرت قضية موقف غالبية علماء المسلمين من العلميات التي ينفذها تنظيم القاعدة وذلك في حوار مع القيادي فيها مختار بلمختار، وهو ما اعترف به بلمختار، مؤكدا أن لديهم نقصا كبيرا في الشخصيات العلمية، مبديا استعدادهم لأي حوار يشرف عليه العلماء، وداعيا هؤلاء العلماء إلى زيارتهم وإجراء حوارات معهم وتوجهيهم توجيها سليما.

أما ممهداته فهي بالعمل على علاج أسباب الحقيقية، وهي التهميش والغبن، والظلم، واستهداف المقدسات، ومصادرة الحريات، واستباحة الدماء في العالمين العربي والإسلامي، بل وإعادة الاستعمار في شكل جديد، إضافة للجوانب الاقتصادية كمعالجة البطالة، ومراجعة المشاريع التنموية في المنطقة، وضمان وصولها لوجهتها الطبية، وإنهاء النزاعات الداخلية، وخصوصا ذات الطابع العرقي بشكل عادل يضمن لكل حقوقه.

فالاعتراف بهذه الأسباب وعلاجها الجذري كفيل بوضع الحوار على السكة، وضمان وصوله لأفضل الأسباب.

ومن وسائل نجاحه أن يتولاه العلماء العاملون العارفون بحقيقة، فالبندقية – مهما بلغت – لا يمكن أن تواجه الفكر، أحرى أن تقضي عليه.

ومن القضايا المهمة في هذا السياق استيعاب المشاركين في المراجعات، وتقديم الفرص الدعوية والثقافية والسياسة لهم.

ويحتاج هذه الحوار إلى ضمانات، وأهمها من وجهة نظري هي:

- بناء الثقة في أسلوب الحوار، واعتماد مقاربته بشكل رسمي.
- احترام التعهدات والاتفاقات المترتبه عليه.
- وإيجاد آلية دائمة له، تستبق وقوع الأحداث، وتناقش أهم الإشكالات التي يمكن أن يرتب عليها عنف، ووضع الأحداث في سياقها بمتابعة العلماء وإشرافهم.

وختاما: لا بد من التأكيد على أن التجفيف الحقيقي لمنابع الإرهاب ليست في محاربة المظاهر الإسلامية، ولا في دخول حروب مفتوحة، ولا في تغيير مناهج التعليم هنا أو هناك، وإنما بتجفيف منابعه التي لا تنضب في عالمنا الثالث، وأخطرها – كما أشرت سابقا – الجهل، والفقر، والتهميش، والمظالم المتجاهلة في ربوع العالم الثالث، من يريد وضع متاريس حقيقة في عربة الإرهاب المندفعة فليتجه نحو إقامة تنمية حقيقية، وتوفير عدالة شاملة.